من تراب الطريق!

(١٨١) بوصلة تائهة ! (*)

من الظواهر المؤسفة، أن بوصلة الإعلام بعامة تبدو ضالة حائرة فى هذه الأيام، تاه منها أن الأصل الواجب هو التوجيه والإصلاح والتنوير، وغرقت معظم قنواته فى هاوية " المسايرة " التى ترضى غرائز الناس، وتثير أشواق النميمة، وتستجلب زيادة التوزيع، حتى وإن بثت الحول والعماء ونشرت مدركة أو غير مدركة عوامل الفساد والإفساد !

يبدو مغريا لكل قنوات الإعلام، مرئية أو مسموعة أو مقروءة، الاستجابة لأشواق ورغبات الناس، ولا بأس فى هذه الاستجابة إذا لم يعقبها الندامة..تأتى الندامة حين تتسع الدائرة للاستجابة للغرائز والشهوات، والبحث وتقديم ما يثير، والتوقف والانصراف عما يثرى ويفيد !

فيما عدا الإذاعة والمجلات الأدبية والثقافية والسياسية والنقدية، وبعض صفحات ببعض الصحف تهتم بهذه المجالات، فإن دور الإعلام الخاص والعام فى التنوير والتوجيه والتثقيف قد ضمر حتى كاد ينطمر !

المشهد الراهن يورى بأن عقل الأمة ومخصبات تثقيفه وتنويره يكاد يكون ضائعًا فى خريطة معظم القنوات الإعلامية، ولكل منها دوافعه وأسبابه ! فالقنوات القومية وإن برئت من أسلوب الإثارة والبحث عن إشباع الغرائز، إلاّ أنها مشغولة بتقديم ما يرضى السلطات، اتفق أو اختلف عن الحق والصواب، اقترب أو ابتعد عن تكوين العقل . بينما القنوات الخاصة، مرئية أو مقروءة، مشغولة بالرواج والإيراد، لا يعنيها إلاّ كل

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٢٤

مثير يشبع ويرضى ويساير، ولا تقدم - إلاّ من باب المواربة ! - ما يوجه ويثقف وينير!

معنى هذا أن عقل الأمة غائب، لا يلتفت إليه أحد، ولا يوليه حقه الواجب من الرعاية ! بينما كل مشغول مدفوع - لأسبابه ! - إلى إثارة الغرائز والشهوات، ودغدغة المشاعر بما يرضى لا بما يفيد، وبالإسفاف الذى تعلو لغته وسط هذا الهدير!

قلت سالفا - ولعله فى الأهرام أو مجلة الهلال - إنه وسط هذا الخضم والانفلات الذى لا يحده عرف ولا قانون ولا أخلاق، يبدو دور الإذاعة المسموعة هو القناة البريئة من معظم هذه الأدران .. فهى تخاطب الأذن لا العين، وصافية منقاة من مشاهد إثارة الغرائز .. ثم هى قناة مجانية، متاحة ميسورة فى كل وقت لاستقبال المتلقى فى كل مكان، حتى فى حقله ومصنعه وورشته ودكانه وسيارته ودراجته ومطيته . يضاف إلى دورها فى التثقيف والتنوير، أنها - باعتمادها على الأذن - تنمى وتخصب المخيلة والخيال.

هذه القدرة على تحريك وتخصيب وإثراء الخيال، لا يمكن أن تضاهيها الوسائل المرئية .. فالصورة التى تبثها المرئيات تشغل العين مباشرة، ولا تترك مساحة لانطلاقات الخيال التى يغذيها فى حالة الإذاعة أن ما تتلقاه الأذن بحاجة إلى رسم صورته على شكل ما فى المخيلة . المشهد المرئى يفرض صورة معينة محددة، بينما يستدعى المسموع ويستحضر خيال المتلقى لرسم صورة لما يسمعه.

ما أردت أن ألفت إليه، أن خدمة العقل مخنوقة أو تكاد فى برّ مصر، وأن معظم الهم مشغول إما بإرضاء السلطات، أو بإشباع النزعات . مع شيوع المسايرة لجلب الرضاء أو الرواج والإيراد، وتراجع التنوير والتوجيه، توارت أو تكاد وجبات الثقافة والمعرفة، وشرايين إمداد العقل بما يغذيه ويحركه . نذير سوء أن تغيب عنا موجبات رعاية عقل الأمة !